

﴿ مقالة في التربية ﴾

لحضرة الكاتب الفاضل عبد الله افندي المراثى نزيل مرسيليا
(تاج لما في الجزء السادس)

المطلب الخامس

في ابتداء تنوير الذهن

أكثر الناس يعتمدون ان تنوير ذهن الولد قائم بمجرد تدريس الكتب كما تقدم وهذا خطأ أول يترتب عليه خطأ ثان وهو انهم يسرعون بوضع الولد في الكتاب وهو ابن اربع سنين على الكثير و يحملونه باديء بدء على تعلم التهجي حتى اذا حفظ أسماء حروف الهجاء اخذوا في تعليمه القراءة بالكتب وهو بعد في سن لا تصلح لذلك . ولو كانت الكتب التي يحملونه على تعلم القراءة بها قريبة المأخذ سهلة العبارة تشتمل على قصص يستلذها ويرتاح لمعرفة او على فوائد بسيطة تشفي ما في صدره من غليل الاستطلاع والاستعلام لكان الخطب اهنون لكنهم يحملونه على قراءة كتب لا يكاد يفهم أكثر معانيها فيتبرم الولد بتلك الكتب وبقراءتها تبرم الزنجي اذا حملته على سرد الفاظ بلغة اليونان او بلغة اهل الصين وينفي به ذلك الى كراهة القراءة والكتب والعلوم بأسرها

وكل من عانى امر تعليم الاولاد في البلاد المتقدمة يعلم انه لا ينبغي وضع الولد في الكتاب وهو صغير جداً وانه اذا حان وقت وضعه فيه اية اذا بلغ السنة السادسة من عمره على الاقل فلا ينبغي ان نحمله باديء بدء على التعلم

١ كما يفضل أكثر الناس في بلادنا وذلك تخلصاً من حرام الولد اثناء بضع ساعات من النهار والقاء لهذا البعب على كاهل المعلم

بالكتب بل ينبغي ان نلوم ثم على ما كنا نفعله به وهو بعد في البيت ايسر على تعليمه بالاشياء والمراد بذلك الاشياء التي تقع تحت حواسه او تخطر بباله او تستلفت نظره فيقال عنها سواء كانت في البيت او في السوق او في البستان او في الكتاب او كانت من اعضاء جسمه او ثيابه او من قماش البيت او من انواع الطير والحيوان او من افعاله او افعالها وهما جرأ . ولا نفتح الكتب الا اذا قدت هذه الاشياء لان ما يتعلمه هكذا يكون احب اليه واشد رسوخاً وتأصلاً في ذهنه اذ يكون هو الذي تنبه له وسمى في تحصيله وانتقل اليه فكره وصار لهذه العلة صاحبه فكان اولى ان يحتفظ به ويغار عليه بما لو تلقنه من الكتب او اخذه عنها حفظاً عن ظهر القلب من غير فهم لمناه ولا عناء به ولا رغبة فيه لان ما يحصله هكذا لا يلبث ان ينساه سريعاً

ومن اخذ البلاد بغير حرب يهون عليه تسليم البلاد

وفضلاً عن هذا فان التعلم بالاشياء انما يكون بالمباشرة والملازمة والامتحان والاختبار بالنفس لا عن يد غيره فهو لذلك افضل من التعلم بالكتب لان ذاك يقن بالخبرة الشخصية وهذا في اول الامر تسليم بما يقوله الغير وشأن ما بينهما . واضف الى ذلك ان العبارات والالفاظ التي في الكتب مهما كانت قريبة المأخذ سهلة الاشارة مألوقة لا تولد في ذهن الولد شيئاً من الخواطر الا على قدر ما تمتد اليه معرفته بالاشياء والافعال والمعاني التي وضمت تلك الالفاظ للدلالة عليها . ثم ان تعليمه بالكتب وبما فيها من القواعد العامة الموبصة التي تنعيب البالغين انفسهم يجري على خلاف مجرى الطبيعة في تنوير الذهن اول ما يتنور وبذلك يقع التعاند بين فعل المعلم وفعلها . لان التعليم بالكتب يتبدأ فيه بالكليات قبل الجزئيات التي تولدها وسير الطبيعة يقتضي العكس اي الابتداء

بالجزئيات ثم الانتقال منها رويداً رويداً الى الكليات لان من حق البساط
ان تقدم على المركبات تقدم العلل على معلولاتها والمقدمات على نتائجها .
والعلماء الذين وضعوا قواعد العلوم كلها لم يتوصلوا الى وضعها الا بعد استقراءهم
المفردات الداخلة في حكمها . فارسطوطاليس لم يتوصل الى وضع قواعد المنطق
الا بعد استقراء طرق الناس في التعليل والبرهان والاستدلال وضرب الاقيسة
واستنتاج النتائج . وابو الاسود الدؤلي (ماو سيويه) لم يضع قواعد النحو الا
استناداً الى ما استقرأه من اساليب العرب في التعبير عما في انفسها وتغييرها
احوال الكلم تبعاً للمعنى الذي تريده لا عن علم منها بالتصريف والجار
والحجور والفاعل والمفعول . والخليل لم يضع قواعد العروض الا استناداً الى
ما استقرأه من الاشعار التي كانت العرب تنظمها موزونة مطردة الروي والقافية
على غير معرفة منها بالاسباب والاولاد والعلل والزحاف وهلم جرا . فالقواعد
اذا نتيجة استقراء الاحوال المفردة وتلخيصها ولذا كان من الغلط البين ان
نشرع في تعليم الولد قواعد العلوم كعلم النحو مثلاً من قبل ان يعرف شيئاً من
الجميل المتنوع التي يتركب منها الكلام في اصطلاح النحاة بل من قبل ان يعرف
معاني الالفاظ المفردة التي تألف منها تلك الجمل اذا انه لا يعرف بعد سوى
لغة العامة التي تخاطب بها امه او ظئره او خادته وهي لغة تكاد تكون مالطية
لكثرة ما دخل فيها من اللغات الاخرى ولكثرة فسادها من وجوه متعددة
على ما هو معلوم . اما عبارة الكتب فهي غالباً بلغة تكاد تكون للبالغين انفسهم
بمنزلة اللغة اللاتينية او اليونانية القديمة للافرنج المحدثين . ومهما يكن من هذا فان
الولد لا يفهم عبارة كتب العلوم لانها بلغة غير لغته العامة التي لا يعرف بعد
سواها . وقد اسلفنا ان تعليم القواعد بالكتب يبتدىء عندنا قبل ابانه اي حيناً

يكون الولد بعد في سن لا يستطيع معها ان يدرك الامور العامة التي نعمله على تعلمها لعدم علمه بالامور الخاصة التي تتألف تلك الامور منها فكاننا نعمله على تعلم الرموز قبل ان يعرف الاشياء الرموز اليها والدلالات قبل الاشياء المدلول عليها ويكون مثله في ذلك كمثل البناء الذي يحاول ان يعقد سقف البيت من قبل ان يقيم الجدران التي تملأه. وهذه الطريقة من التعليم تجعل ذاكرته كمعجم يُعَدُّ فيه الفاظ بعض اللغات المائة او كدفتر يُجَمَّع فيه خواطر الآخرين وما حصله غيره من الباحثين وكان الاخرى ان يكون هو نفسه الباحث عن الخواطر والمحصل لها

فلا بدع والحالة هذه ان كثيرا من الاولاد اذا خرجوا من الكتاب او المدرسة ينسون كل القواعد التي اتبعناهم في تحفظها وان لم ينسوها كلها فالتى يذكرونها منها لا تفيدهم شيئا لانهم لم يتشربوها كما ينبغي ولا اختبروا صحتها بانفسهم ولا انطبقت احكامها عندهم على معلومات بسيطة تعلموها صفارا وسبق رسوخها في اذهانهم بحيث اذا انضافت اليها تلك القواعد امتزجت بها وارتبطت ولذا تبقى في اذهانهم متقلبة لانه لا شيء ثم يقلها ومنفردة غريبة لانه لا شيء ثم من جنبها تألفه وتنضم اليه وهم انفسهم لا يقدرون ان يستعملوها في مواضعها اذا مست الى ذلك الحاجة لانهم في الغالب لم يفهموها وهب انهم توصلوا بعد العناء الطويل واجهاد القرينة الى ادراك معناها وهم بعد في المدرسة فكثيرا ما يتفق انهم اذا خرجوا تركوا استعمالها لمقتهم اياها وترك العادة يورث البلادة ستأتي البقية

